الامانة والمرأة

خطاب الصاحبة مجلة العروس تلاه عنها حضرة الانسة في حفلة حديقة تهذيب الفتاة السورية في بيروت

« عوض عن غيابي بحضرتكم يا سيداتي ويا سادة . فلا تستغربوا اذا وقفت فوق هذا المنبر وانتم تراني وانا اسعى في بروغرام الحفلة فانا الاوكيل لا اجيل . وان شئتم فاعتبروني فونغرافاً او كراموفوناً ينقل اليكم صوت هزار طالما اطرب النفوس بتغريده . فقد كلفتني صديقتي الانسة ماري عجمي صاحبة مجلة العروس ان القي خطابها عنها لانها لم تستطع مغادرة الشام لاسباب ضرورية . ومن اولى من صاحب الحسناء بان تتقمص فيه روح صاحبة العروس »

لقد أعجبت بكرامة اخلاقكم وحسن ظنكم بي بدعوتكم لي للوقوف على منبر طالما صدحت عليه اخيار وغنت فوقه بلابل ولست الا قصبة تحركها الريح زبت على ضفاف بردى ومع ذلك لم تحرم من الحياة بل ما انا الا حشرة من الحشرات الصغيرة الماسية بين اعشاب الغوطة فتأملوا بمن انيتم لتنظروا وتسمعوا فتعلموا ان الغرور يسري بين الجموع كما يسري بين الافراد وان الهفوة التي صدرت من هذه الجمعية الكريمة ستجعلها ملامة على دعوتي لالقاء كلمة الحفلة التي اخترت لها احد المواضيع الاجتماعية المؤيدة للوفاق بين الازواج

ان رأيي بكم مخالف لرأي الشيخ الالباني القائل ان بيروت التي درة في تاج بني عثمان لانها في اعتقادي تاج العناية والدرر التي تلمع فيها ولو حقيقة وعيها اذهان الحشرات وقصرت عن ادراكها افهام الملوك والعظماء

جمعيتكم هذه هي الثمار الذي يجب كيلتكم دماء الحياة وتنشيطكم لمثل هذه المشاريع العظيمة هو الشريان الذي مازلتم درراً ثمينة تقلد الاعناق بعقود الجيل وتزين الشعور بغير الاكاليل . فلا تفتروا بها على اطفال يستقبلون الحياة بالدموع كما تستقبلهم بالانين وتودعهم بالانحدار الادبي كما يودعونها بشوق الى الرحيل

لو كان هذا الفصل صيفاً لآثرنا الجلوس تحت الماء او المسير بين الحقول والشاطئ مصغين لمزف الامواج وغناء الاطيار ولكن الفصل شتاء سادتي تحتاج فيه الى مأوى يحمينا من مفاجأة الصواعق وهطل الامطار

لو لم تكن مئات والوف من الصغيرات في بلادنا بدون مأوى التهذيب الخلقي من عصف

الضلال . لما دعتكم هذه الجمعية لتكونوا الجأ الامين لمواساة هؤلاء الضعيفات . لتقي نفسها شرّ الابتذال وتحفظ صفاءها من اللطخة السوداء . فيقل عدد تلك الحوادث المفجعة عليها قلوب الصخور الصماء . ويبطل فعل تلك الخطوب المتفاقمة بين الطبقات الثلاث كلّ السواء .

كلنا ضعفاء في هذا العالم فاذا لم نتبادل الولاء ولم نأخذ باسباب التعاون باللين والرفق والاخلاص . اذا لم يكن قلب كلٍّ منا ملجأ لشكوى اخيه . فحياتنا عبء ثقيل على كاهل الانسانية . ومثلنا مثل الجبال المغطاة بالغلال الطبيعية او الفراش الحائم حول دفء مهجور يترنم بانشيد عرسه جاهلاً او متجاهلاً قرب الفضاء الاجل وسرعة حلول الفناء .

هذا هما المرأة من التأثير في نفوس اولادها فان تهذيبها هو ركن هناء العائلة . وامانتها تجعل قساوة زوجها لينًا وتكسب اخلاقه دماثة . وعدم تهذيبها كما لا يجهل كل واحد منكم هو السبب المؤدي بالامة العربية الى التدهور والانحطاط . وقد بدا لي وانا افحص دقائق هذا التهذيب بانه يستحيل على المهذبين ان يحسنوا القيام بواجبهم مالم يغرسوا في نفوس الطالبات احترام الشرائع المنزلة المتضمنة اشرف المبادىء الادبية واسماها والمتكفلة لو عمل بها باصلاح احوال الناس اصلاحًا تامًا .

اذًا ليس التهذيب هو التخرج في المدارس العالية او مجاراة خدام المطاعم في اتقان كثير من اللغات بل هو ان يتعلم كل انسان كيف يعيش وعلى هذه المعرفة يقوم تحسين احوال المجتمع .

ان الجمعيات الخيرية التي تنفق شؤون الضعفاء وتعهد مداواة اجسادهم هي الوفود السموية او ملائكة الرحمة على الارض واسمى منها هي الجمعيات التي تقوم بتهذيب النفوس الجانحة والقلوب الطامحة التي لا تهذبها الا الفضيلة . هي الجمعيات التي تكون مثالاً للبر والتقوى والصدق والامانة — هي الجمعيات التي تتألف وتتحد بيدٍ واحدة غايتها انتشال اولئك الضعيفات اللواتي بسبب فقرهن وفقد والديهن يتعرضن لاخطار هائلة ينجم عنها احتقار الانسانية . اولئك اللواتي اذا لم يكن من يرشدهن في حداثتهن يسرعن بالاقتراب من الهاوية . متعقبات ظل اليد السوداء . التي طالما اشارت وتشير الى امثالهن بالهبوط الى اعمق لجج الويلات

فارفقوا بالفضائة والبسالة وهما الطفل في المهد وافتحوا لتلك العيون التي يشع منها نور البراءة سبيل الرشاد فتعاهدوا عليهن من الجنوح فيقل عدد الفتيات الشاردات والزوجات الخائنات .

اذا نظرت الى الفضائل كجسم مركب من اعضاء كثيرة تنأم او تقوى معاً حسب النظام السائر بتوجيه كما نظر اليه بولس الرسول يجيل لي ان الامانة هي رقبة ذلك الجسم الامانة ذلك الرداء النقي الذي تنسجه الطهارة وتخيطه البساطة ويلبسه الحب هو عنق الفضيلة هو مخرج الروح هو عماد التهذيب هو الصخرة التي تنبت عليها زهرة المحبة . نشم رائحتها من اقتصاد المرأة في نفقاتها وانصرافها الى اسعاد عائلتها وتهذيب نفوس اولادها

الامانة للرجل كل المجد والشرف وللمرأة كل النحل واخجل . ولعمري ماذا تبغي المرأة في العصر الحاضر سوى الهاب تحصيل اخجل وعندها ان تحول ابصار الاعجاب والثناء عنها اشر من يوم الاعتصار

كل ما يعتبر نجوعها من النفس . ذلك الخلق الذي يبدو في هيئة محاكمنا وتجارتنا ومتاجرنا ومعاملاتنا حتى وفي بيوتنا بين عائلاتنا غنية كانت او فقيرة . كل ذلك نشأ من سريان داء الخيانة ذلك الداء الخبيث الطامع بين كل النقائص والعيوب . الذي لا يزال يلعب ادواراً مهمة في مرسح حياة الافراد والجماعات

قليل هو عدد الامناء قليل هو عدد الاعناق السليمة من الغل والاوباء . والخناجر الخالية من الدنيا والسرطان

ان البشر على هذا البدا يقسمون ثلاثة اقسام — الاول هم الامناء الذين يطلبون امناء احسن اليهم الغير امناء . هم الذين يقومون واجبهم في النور وفي الظلمة في الجهر وفي الخفاء هم ذوو النفوس التي لا تتلطخ والقلوب التي لا يدنيها احمرار الخدود والدم التي لا يسودها اصفرار الذهب . هم الذين يعدون العشرات بينا اولئك يعدون بالالوف وكأنهم بينهم واجلت في الصحراء

القسم الثاني هم الذين يكونون امناء مع الامناء وخونة مع الخائنين

مما يضحك ويبكي معاً ان نرى اكثر البشر مسلمين ضعف الطبيعة الى اليأس كل حالة لبوسها كأن عبودة التقليد سمت بهم الى درجة تجعلهم يعيشون مع الهواء ويذهبون كل مذهب

امثال هؤلاء لا يمكنهم السير في سبل الحياة الحقيقية لانهم يرتعون هم مقر العقل سرعة ويخرجون عن نظام الصحة أقول

هل من العدل ان نصير نصوصاً عندما نتناهى النصوص اما كان خير لنا لو كنا منذ البدء خائنين

القسم الثالث هو عبارة عن فئة تستفرغ البحث والمجهود لتعكير الصفاء وابداء العداء والتضامن على نقض العهود والمبادىء غير ملتزمة خطة الحياد في استنشاق الناس الهواء الذي ورثهم الله الصافي

هذه الاقسام الثلاثة تنطبق تماماً على جميع احوال البشر من نساء ورجال

اذاً لا يجوز ان تظن سيدتي بان اتباع زوجها او ذويها في كل طريق يسيرون فيها واجب وضروري

لكي ينضح فضلك يا سيدتي يجب ان تحافظي على مبدإ امانتك ولو انقلبوا عليك على حورات الخيانة الملذة الى حين والمشقية مدى الدهر

اي فضل لك اذا كنت امينة لزوج امين . ولعمري اي عاقل يرمي نفسه من القمة الى اسفل الهوة اذا رمى غيره نفسه ايضاً

ينصف الرجال ذواتهم . ان الامانة المتهددة المتزعزعة المتوعدة من آن الى اخر الناطرة بفروغ صبر لسقوط غيرها للتدهور وراءه . ليست بالامانة الحقيقية التي يجب ان تملأ فضاء البيت

ما قولكم بالملكة التي تعمل على تقويض عرشها واهلاك رعيتها وتشتيت شملها عندما تبدو لها خيانة واحد من الرعية ؟

ما اشد جنونها عندما تبيع صولجانها وترمي الى الارض تاجها اذ تكتشف على خيانة في بلاطها وذلك لكي تنتقم على رابيها من اولئك الحاشين انفسهم الناكثين بعهودهم بدلاً من ان تتودد اليهم وتعاملهم بالحسنى التي تجتذبهم من امراض الخلق

سيدتي اذا دخل زوجك الى البيت متعثراً باذيال التصور فلا تحملي قلبك الى زوايا السبيل ولا تضعي عرشك في متعطفات الطرق

لا تنادي الفضائح . لا تلجأي الى رحمتهم . لا تختمي بصدورهم فيتهموك بالخطب وبرداد البلاء

اليس في قيامك الواجب ما يردع الخبر ولو بعد ايام كثيرة من ذلك الجنون الهائل والطيش القبيح ؟

اليس في مجتمك لابنك لمساً لجراح قلبك المتألم الكليم؟

لا تجاري الداء بالسم الزعاف اذا كنت ترجين رغداً وهناء !

لا تحاولي ضمد الجراح بسيف النقمة فتزداد توسعاً وانفجاراً . شدي اليها وثاق

الامانة واسكبي عليها قطرات من دموع الاخلاص . لانها الواسطة الوحيدة للانقاذ من البئر العميق والدواء الشافي لذلك الداء العضال المؤدي لحياة العائلات

بين تهور الاب وضلاله وانتقام الام وجهلها تضيع كرامة ذوي البيوتات مع شرف البنين ومستقبل البنات

كثيراً ما رأيت الخيانة تمثل أدواراً محزنة على مراسح العائلات . وكثيراً ما رأيت بين اولئك افراداً قلائل ممن عرفوا ان ضروب مناظرة ذويهم للانتقام منهم لا يراعي من قدرهم و يطفئ سعير الغرام بقدر ما يحط الجزاء من جنس العمل وما تقرره الشريعة الجنائية

اخواني — على المرأة ان تلازم حصنها عندما تخرج لكي تستر الدنس الكامن في عقلها . وعلى الرجل ان يريا من كر دماغه في كل يوم . ما يحق معه ان يتقدم ليرمي الحجر اولاً .

هذه هي آية هذا التمدن المؤلف من مزيج سموم الاقاليم الغربية ضد المعتقدات الشرقية .

هذا ما اقوله للمرأة الغنية وماذا عساني اقول لتلك التي تلاعب بها الارياح العاصفة وهي عارية الروح رثة الثياب ؟ ماذا اقول لتلك التي لم يعلمها المذر عندما لا تجد رغيفاً يسد رمقها ولا محامياً يأخذ يدها . ولا رداء يستر جسدها ولا قوة تشل ضعفها

لا . لا اقول لها شيئاً . احب ان يزداد ذلك الايب الذي يتغذى من جراحها و يشرب من دمها

بل اقول لذوي السواعد الرقيقة . احث ذوي القلوب الكريمة على تأليف الجمعيات التهذيبية ومناصرتها . لكي يأمن ذلك العاجز المحتضر على من يتركها جائعة بقرب فراشه تبلل قدميه بالدموع وحيدة لا نصير لها الا الله وامثالكم الكرماء

ان الحيوان يحافظ و يا للاسف على مبدإه اكثر مما يحافظ عليه الانسان وعندي انه خير لهذا ان يكون ابناً للحيوان الذي يموت في سبيل امانته من ان يكون ابناً للانسان الخوان بالفتات الذي يسقط عن موائدكم ايها الارباب احفظوا فتاتكم من السقوط . واطفئوا حر ظمأها بجرعة من النهر الذي منه تشربون

يحافظ كل على المبدإ السامي الخطأ مصيره ام اصاب مهما تحاهل الانسان الطريق المؤدية الى الراحة فان له من ضميره الذي يرى وصايا الله بأوضح مما يراه هو عينه دليلاً ونوراً ومرشداً صالحاً يقوده في سلم الحياة ومراقي الفضيلة

لنا نظام ولنا ضمير فلنفتح اعيننا للتأمل والحذر . هما العصا التي تقود خطواتنا وتقينا هول السقوط

فلا يجب ان نعيش بلا مبدأ و بلا نظام ما دامت اجسادنا معرضة للفناء الاهواء